فالأحياء ذات أصل واحد هو الماء، والدواب ذات أصل واحد من ماءٍ، والكل مع سائر الكون ذو أصل واحد سمي ماءً هو المادة الأم، فلا أصل للكون أياً كان إلّا مثلث الماء، فلا مجرد عن المادة إلّا خالق الكون! والكون بروحه وجسمه ينتهي إلى الماء إذ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ في خلق السماوات والأرض بما هما الكون المخلوق أجمع، كان ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: المادة الأم، فكل شيءٍ سوى الله، من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجان وملائكة أمّن ذا وماذا، إنها مخلوقة من «الماء» دونما استثناء، فأين التجرد في روح وسواه والكل من مواليد الماء؟

إذاً فآيات الخلق والجعل من الماء هي من دلالات المادية الشاملة لما سوى الله من جسم وروح، وكما آيات أخرى وروايات وأدلة عقلية تدلنا على مادية الروح أياً كان، وبحثه الفصل تجده في آية الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾(١) (٢).

ولماذا «منهم» هنا ثلاث مرات راجعاً إلى ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ و«هم» يعني ذوي العقول؟ إنه لتغليب ذوي العقول من إنس وجنٍ أمَّن ذا؟ تشملهم ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾.

تذكر هنا من صنوف الدواب أقسام ثلاثة «على بطنه - على رجلين - على أربع» ثم يشار إلى سائرها الزائد على أربع بـ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ معللاً بالقدرة المطلقة الإلٰهية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ابتداءً بـ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف، لأنها أعجب مشياً إذ تمشي دون أرجل ثم ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ وسطاً في العجاب مع أنه أمتن المشي ثم ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ وهو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) وكما في آية الزوجين والأزواج وأمثالهما وآية الإنشاء في سورة الحج.

أمكنه وأركنه، وكلما ازدادت الأرجل نقص العجاب من ناحية وازداد من أخرى، كالتي تمشي على ألوف الأرجل!.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾:

هذه الآيات المبينات هي المنزلة هنا وفي سائر القرآن، فإن آياته كلها مبينات تبين الحق كما يحق، فمن شاء اهتدى بها ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ إيصالاً إلى الحق بعد اهتداء الدلالة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهو من يشاء الهدى بآياته البينات ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

ليس الإيمان لعبة يتلهى بها في مقال، إنما هو تكيّف في النفس انطباعاً في القلب، حالاً واقعية تظهر في مقال وفي أعمال، فأما القول - آمنا - فقط فهو لفظ الإيمان دون واقعه، وأما عقد القلب دون ظهور في عمل فهو حال الإيمان ولمّا يستكن في القلب، وإلّا فأين عمل الإيمان؟ فإن له صورة الظاهر كما له سيرة الباطن.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ الذي أرسله[1] ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله في محكم كتابه ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الرسول فيما أرسل به من سنته الجامعة غير المفرقة، فهم يدعون مثلث الإيمان المستخلص في ثالث أضلاعه: ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ولكن ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بعد تلك المقالة ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الدعوى ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتولون ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث التولي عن طاعة الله والرسول يكذب دعوى الإيمان، فإنما الإيمان هو الطاعة على درجاتها فدرجاته، ثم لا يكون إلّا دعوى الإيمان! بنفاق، أم ارتياب بعد إيمان، أم ضعف في إيمان! ومهما كان ضعيف الإيمان مؤمناً ولكن ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على حد قولهم ﴿. . . وَأَطَعْنَا﴾ حيث عصوا، فلم يقل «بمؤمنين» إذ فيهم قليلو الإيمان! وإنما ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخصوص في ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ومن توليهم عن طاعة الله ورسوله:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

الرسول ﷺ هو الحاكم بينهم بما أراه الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

(١) وإنما فصل الرسول بالباء للفصل بين الإيمانين أصالة ورسالة، ولكي لا يظن أنهما في درجة واحدة أم هما واحد، رغم الوحدة في الاتجاه.

﴿بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[1] وقد أراه الله حكمه بوحي القرآن والسنة، فـ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ المفرد مع سابق ذكر الله ورسوله، يعني حكم الرسول، بالدعوة إلى الله دعوة إلى كتابه، والدعوة إلى الرسول دعوة إلى سنته، والحاكم بالكتاب والسنة بينهم هو الرسول إذ الله لا يوحي إليهم، فـ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ...﴾ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن حكم الله والرسول الذي يحكم به الرسول، هم معرضون عن حكم الرسول إذ يرون الحق عليهم في ميزان الحق، ثم هم أولاء ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ في قضيتهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ بطاعة الله وصدق الرسول، مذعنين بحكمه، وفي الحق لا يأتون إلى الرسول إذ لا يأتون إلّا إذا وافق حكمُه هواهم! فهم إذا يأتون هواهم، دون هداهم.

وقد أنزل الله هذه الآيات تنديداً بهؤلاء المتولين العصاة فقال الرسول ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له»[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ٥٤ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ فإذا دعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض وقال: انطلق إلى فلان فأنزل الله ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ [النُّور: ٤٨] - إلى قوله - ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] فقال رسول الله ﷺ: من كان نبيه...

وفيه أخرج الطبراني عن الحسن عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له، أقول يعني به سلطان المسلمين: من له سلطة شرعية عليهم من حكام الشرع والقضاة أمّن ذا من أجهزة الدولة العادلة الإسلامية إلا إذا تأكد أن هذا السلطان ظالم فالتحاكم إليه تحاكم إلى الطاغوت!.

وفي نور الثقلين ٣: ٦١٥ ح ٢١٠ عن تفسير القمي حدثني ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان وذلك أنه كان بينهما منازعة في حديقة فقال أمير المؤمنين عليه السلام نرضى برسول الله ﷺ فقال عبد الرحمن بن=

ولماذا يتولى هذا الفريق فيعرض عن حكم الرسول ﷺ إلّا إذا كان لهم الحق؟:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

= عوف لا تحاكمه إلى رسول الله ﷺ فإنه يحكم له عليك ولكن حاكمه إلى ابن شيبة إليهودي فقال عثمان لأمير المؤمنين عليه السلام: لا نرضى إلا بابن شيبة إليهودي فقال ابن شيبة لعثمان: تأمنوا رسول الله على وحي السماء وتتهموه في الأحكام؟ فأنزل الله عزوجل على رسوله ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٤٨] - إلى - ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] ثم ذكر أمير المؤمنين عليه السلام ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. . .﴾ [النُّور: ٥١] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

وفي التفسير الكبير ٢٤: ٢٠، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في بشر المنافق وقد خاصم يهودياً في أرض وكان اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب أرض فتقاسما فوقع إلى علي منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي عليه السلام: اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي عليه السلام: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت هذه الآية، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر.

وفي تفسير الألوسي ١٨: ١٩٤ - أخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة انها نزلت في المنافقين وروى عن الحسن نحوه وقيل نزلت في بشر المنافق دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ وقال: نتحاكم إلى عمر فلما ذهبا إليه قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟

فقال: نعم! فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله فنزلت وروي هذا عن ابن عباس».

أقول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ. . .﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ. . .﴾ [النُّور: ٤٨] لا يناسب شخصاً واحداً سواء أكان عثمان أو البشر أو المغيرة، فقد تعنيهم الآية وأضرابهم دون اختصاص بشخص دون آخرين.

هذا الترديد التقسيم يقرر موقف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم. . .﴾ ﴿دُعُوٓاْ﴾ أنهم جماعة بين من ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاقاً كبشر المنافق، أو غير نفاق حيث نفي عنهم ذلك الإيمان، المناسب لنفاق خلواً عن أي إيمان، أم إيمان ناقص، وقد ردف المنافقون بالذين في قلوبهم مرض فهم أخص منهم ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ. . .﴾[1] ومن ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بعد الإيمان كمالغيرة ابن وائل، ومن ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وله بعض الإيمان كمن لا نسمّيه.

فالمتولي عن حكم الرسول المعرض عنه بعد دعوى الإيمان والطاعة ليس إلّا منافقاً في قلبه مرض، أم مرتاباً بعد إيمان، أم قليل الإيمان حيث يخاف أن يحيف الله عليه ورسوله ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ. . .﴾ ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بحق الإيمان المدعّى منافقاً، وبحق الإيمان الكائن مرتاباً بعده، وبحق الإيمان الباقي خائفاً حيف الله ورسوله نقصاً في الإيمان، وهم الظالمون بحق الرسول ﷺ وبحق مَن نازعوه في حقهم، ولم يرضوا بحكم الرسول حيث يحكم بالعدل!

و«بل» هنا إعراض عن توليهم الإعراض بمثلث الأعراض التي حالت دون الطاعة لرسول الهدى، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني - فقط - المعرضين، لا كل الذين يَقُولُونَ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ فمنهم الصادقون الصالحون، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لا كلهم فلا يعمهم مثلث التنديد و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾!

لقد كانوا على علم ألا يحيف الله ورسوله عليهم ولا يحيد عن الحكم الحق فيهم، إذ لا ينحرف الرسول مع الهوى حتى ينجرف ويتردى، إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لمرض في قلوبهم: نفاقاً أم ضعف الإيمان، أو ارتياب بعد الإيمان، خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل ليس هذا أو ذاك سبباً لخوف الحيف ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾!

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

فـ «بل» هذه إعراض في وجهيه، إلى سبب واحد هو الظلم، سواءٌ أكان في قلوبهم مرض أو ارتياب أو خوف أم لم يكن، فحتى المشرك بالله لا يعرض عن حكم الله خوف الحيف فضلاً عن الموحِّد مهما كان منافقاً أمن ذا؟ فإنما هو الظلم الكامن في قلوبهم يدفعهم إلى الإعراض عن حكم الله!

ترى أليست هذه الثلاث من الظلم حتى يعرض عن سببيتها إلى الظلم؟ علّه يعني أعمق الظلم وأحمقه، أنهم خلواً من هذه الثلاث يعرضون عن حكم الله ظالمين، تعدياً عن طور الإيمان المدّعى، وأنهم على واحدة من هذه الثلاث ظالمون فإن الكل ظلم، فإنما الظلم لا سواه هنا وهناك يدفعهم إلى الإعراض عن حكم الله! فلا حكم إلا لله أصالة وإلّا لرسول الله رِسالة، والتحاكم إلى غير حاكم الله تحاكم إلى الطاغوت أياً كان، وإن مدعياً للإسلام يتردى رداءه ويتحكم أُمته! ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1]!

إن حَكَم الله بحكمه فهو الوحيد البريء عن خوفة الحيف، لأنه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وخلقه في ميزان عدله سواء، وليس في شرعته إلّا سيادة القانون الحق دون سائر السادة، وقيادة القانون الحق دون سائر القادة، ولا حماية ولا مصلحية إلّا العدالة المطلقة التي لا يسطع لها إلا الله.

فإذا كان الله هو العدل حقاً، فالذي يحيد عن حكم الله إلى سواه هو الظالم حقاً ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وليس الله وليس رسول الله، ولا كل من يحكم بحكم الله، فإنما هم المعرضون عن حكم الله!

قضية الإيمان الصادق ألّا يقدَّم بين يدي الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2] فالمقدّمون بين يدي الله ورسوله هم

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١.

المنافقون مسلمين كانوا أم سواهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] فالمنافقون كما الكافرون ملة واحدة وأما المؤمنون:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

إنما السمع والطاعة بعد القول ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ هو قاعدة الإيمان وفائدته، فعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال، وعند الامتحان يكرم المرءُ أو يهان.

فالقول «آمنا...» هو قولة الإيمان صورة لفظية، وعقد القلب به هو صورته المعنوية ولمّا يصل إلى سيرته، فـ- ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هنا تتبين سيرة الإيمان بسريرته: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ عملياً في تجربة الإيمان، بعد فلاحهم في حال ومقال!

ثم لا يفوز بفلاحه هذا بعد القول: سمعاً وطاعة، إلّا بمثلث الطاعة الخشية التقوى: ١ - ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ٢ - ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾، ٣ - ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾!

فالخطوة الأولى هي الفلاح: شق الطريق الصعبة الملتوية إلى المقصود، ثم الثانية هي الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة دنياً وعقبى، فالقول: سمعنا وأطعنا إفلاح تعبيداً للطريق، وطاعة الله ورسوله وخشية الله وتقوى الله، هي اجتياز بسلامة إلى الخير المقصود، كما الفلّاح يفلح الأرض شقاً وإعداداً للبذر، ثم يبذر بسلامة ويحصد، إفلاحاً ففوزاً تلو بعض!

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٣.

وهكذا نرى آيات الإفلاح والفوز أن الثاني بعد الأوّل ومن مخلفاته: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[١] ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾[٢] فالزحزحة عن النار إفلاح وتسوية للطريق إلى الجنة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٣] وعلّ «ذلك» هو الرضوان أم هو الكل، وكل ذلك فوز نتيجة الإفلاح ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٤].

وأما الإفلاح فهو التعبيد لطريق الفور ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٥] والتحلية هي بعد التزكية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٦] ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٧].

هنالك «كان» في قول المؤمنين ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ تضرب إلى عمق الماضي تلميحاً أن ذلك قضية الإيمان بطبيعته، فالمتخلف عنه متخلف عن الإيمان الصالح مهما كان له إيمان! ثم ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ...﴾ تعم دعوة أحد المتنازعين، أم أي داع إلى الله، أو داعي الله أو داعي رسول الله، ثم الطاعة - وهي واقعها - بعد القول ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ ومن ثمّ الخشية مع الطاعة ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ تحكيماً لرباط الطاعة، وأخيراً «ويتقه» تقوى في الطاعة الخشية والخشية الطاعة، أن تستخلص في الله دون سواه، هذه الثلاث زادٌ فائز صالح في الطريق الفالح، اللهم اجعلنا من المفلحين الفائزين.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الصف، الآية: ١٢.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.
(٧) سورة النور، الآية: ٣١.